التناصُّ السياسي
في شعر جاسم الصحيّح
Political harmony In the Jassim Al Sahieh poetry.

أ. م. د. محمد حسين علي حسين
جامعة كربلاء - كلية التربية للعلوم الإنسانية
Dr. Mohammed Hussein Ali Hussein
University of Karbala - Faculty of Education for Human Sciences.

كلمات مفتاحية : جاسمٌ الصحيّح/ التناص السياسي/ توظيف التناص

ملخص البحث

جاسمٌ الصحيّح شاعر سعودي ينهل من نهر معرفي متعدّد المنابع، متلون الروافد يختلط فيه العلمي بالخرافي والأسطوري، التاريخي، الديني، الصوفي، الادبي والشعري، والسياسي وحتى الفلسفي العربي المعاصر لذا فانّ نصّه الشعري ذو قوام معرفي يحتاج لتفكيك نسيجه وادراك معانيه جهد مضاعف وقراءة تحليلية واعية لمنح النص حياةً متجدّدة تتناسب مع المرحلة. لهذا كان جديراً أن يسلط الضوء على أحد موضوعاته الشعرية ذات البعد الإنساني الذي ما فتئ الشاعر يوظف قدراته لخدمته.

والحياة السياسية العربية والإسلامية بما تمتاز به من اضطراب بتفاصيلها وأحداثها وما تثيره من أسئلة كثيرة شكّلت مادة ثرّة للأدب أجاد شاعرنا في توظيف ابداعه بما تناثر في ثنايا دواوينه من منعطفات سياسية حادّة تسير جنباً إلى جنب مع التحوّلات الكونية المثيرة تفرض على النقّاد تأمّلها وتُغريهم في البحث فيها، من هنا انطلقت فكرة التناص السياسي موضوعاً للبحث الذي تعدّدت محاوره بعد التمهيد وانتهت بنتائج أجملت ما جاء فيه.

.

Abstract

Jassim Al Sahieh is a Saudi poet who comes from a multi-literal, multi-literal river, where the scientific, cultural, mystical, historical, religious, mystical, literary, poetic, political and even contemporary Arabic philosophical are intertwined, so his poetic text has a cognitive structure that needs to be deconstructed. To give the text a renewed life commensurate with the stage. It was therefore worth highlighting one of his poetic themes with a human dimension that the poet has always employed to serve it.

And the Arab and Islamic political life characterized by a disturbance in detail and events and the questions raised by many of the material formed a rich literature that enriches our poet in the recruitment of creativity, including scattered in the folds of his offices of sharp political turns go hand in hand with the global transformations exciting critics and hopes to search them , From here the idea of political harmony began as atopic to research, which has varied its interlocutors after the prelude and ended with the results of what came in

المقدمة

يعدُّ الشاعر جاسم الصحيح أحد سفراء الشعر السعودي المعاصر ومبدعيه، تميز كغيره من الحداثويين بانه ينهل من نهر معرفي متدفق متعدد المنابع، متلوّن الروافد، وبما أن النص يستمد حياته من عملية القراءة وافتراض أن التقاء النص مع القارئ هو الذي يمنح الحياة للنص خصوصاً وأن التناص ظاهرة لغوية معقدة تعتمد في تميّزها على ثقافة المتلقي ومعرفته الواسعة، فهو الذي أغرى بمحاولة تحليل تناصي، من منطلق أن الشعر متجدد على الدوام وبالتالي فهو متعدد القراءات، ولهذا كان حرّياً أن يسلط الضوء على واحد من الشعراء الذين لعبوا دوراً مهماً في إيصال الصوت السعودي الى قرّاء الأدب العربي، ربما أغفلته الأقلام النقدية فلم يأخذ حظّه الكافي من الاهتمام، وظلت أغلب نصوصه لم تحلل باستثناء بعض البحوث والدراسات التي استشعر أصحابها القيمة الفنية لشعر هذا الشاعر، وسوف يكون تتبع ورصد هذا النوع من التناص في الخطاب الشعري لجاسم الصحيح عبر مستويين هما:

١. الرموز والشخصيات السياسية.

٢. التاريخ والأحداث السياسية.

التناص السياسي

في ظل نصٍ متشعب مليء بالتفرعات والجذور والمرجعيات المختلفة، بفضل توسُّع دائرته وتداخله وافادته من حقول معرفية متعدّدة، فإنّ ما يعنينا هنا هو حقل (السياسة).

لم يقف المعاصرون في رؤيتهم للسياسة عند حدود النظرة القديمة التي ترى بالمفهوم الشامل أنّها تنبثق عن كل ما (يتناول علاقة الأمة بغيرها في حرب أو سلم)[١] وقد يضيق نطاقها لتتناول ما (يتصل بالدولة، سواء ما يعبّر به للتأييد أو المعارضة) [٢] . بل صارت أوسع وأشمل وأكثر تعقيداً، والتناص السياسي وفقاً لهذه السعة يفيد من حقل السياسة بوصفه حقلاً إنسانياً يمثل حياة بكاملها، اهتم بها الشاعر الحداثي في منجزه الشعري، ونظر إليه على انه أداة تؤدي وظيفة علامية دلالية تسهم في بناء الدلالة الكلية للنص المنتج، إذ أحدثت الوقائع والأحداث الكثيرة المتسارعة التي تمور فيها المجتمعات العربية والإسلامية على صعيد الحياة السياسية المعاصرة، مجالات للقول كثيرة لم يكن بوسع الشاعر الإنسان التغاضي عنها بأي حالٍ من الأحوال خصوصاً وهي تلقي بظلالها على مختلف مجالات الحياة، فقد صار الأدب يتأمل الحياة ويستلهم واقع الناس وسط ظروف قاهرة[٣] ليغدو الشعر وجهاً للسياسة[٤].

من هنا فإن نظرية التناص جعلت علاقة القارئ بالنص علاقة متلازمة إذ أصبح هو من يتحكم في شفرات النص ليحقق بناءه بوصفه مؤسساً هو الآخر، وليس تابعاً لمبدعه[٥].

ويتضح للباحث أن من أهم مقومات النص: النص ذاته باعتبار اللغة الجدلية التي يمكن أن تحكم مبدعه وموضوعه في تفاعلها من خلال مؤثرات معينة تجعل الشاعر المبدع يقدم على انتقاء حدث أو رمز من مئات الأحداث والرموز لتكون موضوعاً لعمله، وهذه هي منطقة التفاعل التي تتدخل فيها حواسه وثقافته واطلاعاته، وتقتحمها ملكة خياله وتظهر فيها مواد ومقومات الصياغة الجمالية لديه. فإذا ما بدأ التفاعل والتعالق مع ما اختاره من موضوعات من

أرض الواقع السياسي المعاصر أو القديم، راح يؤثر فيه على مستويين، الأول: المستوى الإنساني العام الذي يخلع عليه مشاعره وانفعالاته، الثاني: المستوى الجمالي الذي تصبح فيه اللغة طوعاً لملكات الشاعر وقدراته الإبداعية.

أولاً: الرموز والشخصيات السياسية

أقام الصحيّح عمادَ دلائل كثيرة من نصوصه على رمزية شخصيات ارتفع صيتها في عالم السياسة قديماً وحديثاً، حتى غدت رموزاً للجهاد والتصدي للتحديات وبذل النفس، ومن بين هذه الرموز التي اكتظت بها نصوصه:

١- الإمام الحسن بن علي (عليهما السلام)

كانت حياة (الإمام الحسن) عليه السلام كما هي حياة والده أمير المؤمنين عليه السلام مليئة بالأحداث والصراعات السياسية التي حاول من خلالها أعداء أهل البيت النبوي عليهم السلام سلب الشرعية والإمامة عنهم فواجهها بحكمة القائد الشجاع شديد المراس، وزهد الخليفة وإرث النبوة نسباً وإمامة وخلافة عازفاً عن دنيا ينازعه فيها أهل المطامع. ففي قصيدة (الذكرى الجريحة) التي قدّم لها بقوله (مناجاة في رحاب رائد الإصلاح في تاريخ الإمة الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام) يقول فيها[٦] :

فالأرض ما بَرِحَتْ رهينةَ شرعةٍ
سوداءَ، يلهو في مداها المُنْكَرُ
عَقُمَتْ من السِّلْمِ البريءِ، فَنَسْلُها
من واهبيهِ الى البريّةِ أبترُ

تعرّض جاسم الصحيّح لشخصية الإمام الحسن عليه السلام في هذا النص بوصفه رائداً للإصلاح والسلام في الأرض في أحلك الظروف وأصعبها، تلك الحقبة التي تَقَلّد فيها مقاليد الأمور، حيث ساءت أحوال أهل الكوفة، وأصبح ظاهرهم إسلاما وباطنهم جاهلية، فأفسدوا رأي الإمام بالعصيان والخذلان ولم يكن في خياره سوى الصبر[٧] ، وترجيح كفة الحل السلمي لمشكلة الأمة بعد أن تزاحمت عوامل الضغط الداخلية والخارجية، التي اضطرت الإمامَ لقبول اتفاقية الهدنة (المصالحة) [٨] .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر جاسم الصحيّح[٩]:

أوحت لي الحربُ ألاّ أدّعي سَفهاً
فَهِمَ (الحسين) إذا لم أفهم (الحَسَنا)

فالشاعر يستحضر في قصيدة (الذكرى الجريحة) تاريخ الإمام عليه السلام السياسي ويتماهى معه، محاولاً المقارنة والتذكير من خلال وصفه لواقع الأمة العسير من استشراء الظلم وانزواء السلام، والتأكيد على أنه يعيد نفسه، وأن قصة مواجهة العدل للظلم، والسلام للحرب قديمة، فقد مرَّ الإمام علي عليه السلام بها قبل الإمام الحسن عليه السلام بظروف مشابهة.

ومن شأن التناص أن يسعى الى تخصيب النصوص وتلقيحها برموز وإشارات تنتشلها من حومة السطحية والغنائية لتبدو قادرة على التحليق بقارئها إلى آفاق من العمق والجدة وذكاء التأويل، يقول في أحد مقاطعها:

يا سيِّدي.. وَوَراءَ كلِّ عَدالةٍ
عُنُقٌ هنالكَ تستباحُ، ومنحرُ
هِيَ قصَّةُ (النجْدَين): هذا مُظلِمٌ
بسوادِ ما أعطى، وذلك نَيِّرُ

نَجْدٌ توارثَهُ (ابنُ ملجمَ) فانتهى
حِمَماً، ونَجْدٌ فيهِ أشرَقَ (حيدرُ)
ما زالَ بينهُما الصِراعُ حِكايةً
تَمْتَدُّ ما امْتَدَّتْ عليها الأعْصُرُ
هيهاتَ يلتقيانِ مَهما زيَّفَ الـ
أشْرارُ ميزانَ الحياةِ، وزوَّروا
يا رائدَ الاصلاحِ... إنَّ حديقةً
في راحَتَيكَ لها تَبَرَّجَ منظرُ
عادَتْ - كما شاءَ الجبابرُ غابةً
سوداءَ تعوي بالوحوشِ وتُصْفِرُ

ففي خِضَم ما اجتاح الأمة - في هذه المرحلة الحرجة من عمرها - من إرهاب مدمِّر باسم الإسلام والذي أتى على كل شيء، وأحرق الحرث والنسل، من شأنه أن يدمي قلب الشاعر، ككل الشرفاء الاحرار في هذا الوطن الكبير، وان يُحفِّز ذاكرته لاسترجاع تاريخها السياسي المشرق الذي كان فيه الإمام الحسن جديراً بالوفاء ليكون جديراً بالخلود، كما كانت شيمة معاوية ومنهجه إلى يومنا الغدر ليكون جديراً بِسُبّة الأجيال.

هكذا استغل الشاعر ذلك المجد المجسّد بتحرك الإمام الحسن عليه السلام وجهاده السياسي ليوظفه في نصه الموحي بعظم التضحية وإيثار السلام حقناً للدماء.

ويعود جاسم الصحيّح مرة أخرى لاستحضار الرمز السياسي المقدس نفسه في قصيدة (نفحات من سورة التين) ليعود فيها إلى ذكر الموازين المختلّة في أمته وانقلاب الناس على أعقابها وسط ظلم الحاكم الطاغي المستبد[١٠] :

آويتَ كلَّ دمٍ ضاعَتْ هويَّتُهُ
بين الرماحِ فداءً للنياشينِ
حتَّى أعدتَ إلى الأسماءِ عِزَّتَها
مُتوِّجاً كلَّ مجدوعٍ بِعرنينِ
وعدتَ وحدَك مغبوناً.. فوا غضبي
من أمةٍ شَوَّهَتْ وجهَ الموازينِ!
لم يبقَ منّي سوى نورٍ تطاردُهُ
سودُ الخفافيش في ليل السلاطينِ

وهنا يحاول الشاعر الربط بين الثيمة اليومية المتعلقة بظلم الحاكم لطائفة معينة من المجتمع والسلطان، وقد استعمل لفظ السلطان بدل الخليفة، إشارة الى الجو الظلامي الطاغي على النص، خصوصاً وإنه استجلب رمزاً سياسياً ينتمي إلى الجانب الآخر من جوانب المعادلة التي تحكم العالم، وهو جانب الشر المتمثل في السلطة الظالمة التي عُرفَت ببطشها بالعلماء والصالحين، ولعلّ من مصاديقها (هارون العباسي)، يقول الشاعر:

قالوا: وما اسمكَ يا هذا؟ فقلتُ أنا:
(سحابة) تتحدَّى بطشَ (هارونِ)

فحقيقة التناص تكمن في (وظائفه النقدية وآلياته المختلفة التي قد تسعف في التمييز بين النصوص المتفاعلة والمتحاورة ومن أهم هذه الوظائف وأساسياتها في النظرية النقدية الحديثة هي الوظيفة التحويلية والدلالية، إذ أن الأمر لا يتعلق بإعادة إنتاج المادة المقتبسة بحالتها القائمة الأولى ولكن بتحويلها ونقلها وتبديلها)[١١].

محمد باقر الحكيم

وفي قصيدة (قربان للوطن المؤجل) التي يقدّم لها بمقدمة يقول فيها (الى روح الشهيد السيد محمد باقر الحكيم رحمه الله تعالى وقد تم تفجيره غدراً على

عتبات مقام الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في النجف الأشرف بعد صلاة الجمعة في شهر رجب من عام ١٤٢٤هـ) بدأها بقوله[١٢] :

الليلُ في أفقِ (العراقِ) طويلُ

فَعَلامَ ترحلُ أيُّها القنديلُ؟!

وهنا الجماهيرُ الذين حَمَلْتَهُم

بالأمسِ حُلْماً في دماكَ يسيلُ

حَمَلوكَ هذا اليومَ نعشاً شامخاً

وعليكَ من قُبُلاتِهِمْ إكليلُ

فالنص على الإجمال يتفاعل مع الشخصية المرثية بصفتها شخصية سياسية عسكرية أكثر من ارتباطها بأي حقل معرفي آخر.

وفي هذا النص الإبداعي للشاعر تتراشح النصوص وتتجاور فتتعالق وتتنوع وتتعدد ضمنه مستوعبة إياه في نصية جامعة، كما تتنوع الإحالات المرجعية فيه متفاعلة فيما بينها مشكّلة أهم مكونات الخطاب في العمل الأدبي، ففي قوله[١٣]:

خَرَجَ (العراقُ) جميعُهُ مُتَوحِّداً

في جُرحِهِ، وتَخَلَّفَ (البترولُ)!!

سيجِفُّ هذا (الخارجيُّ)، فإنَّما

هُوَ في بلادِ (الرافدينِ) دخيلُ

وتَظَلُّ أنتَ جِوارَ (حيدر) مثلما

يتجاورُ التكبيرُ والتهليلُ!!

حشدٌ كبيرُ من المفردات المتناصة من حقول معرفية متنوعة، ولعل المفردات والرموز ذات البعد الديني هي الطاغية على النص كما في قوله[١٤]:

اليومَ فُجّرتِ الصلاةُ بِوِردها

فَتَمَزَّقَ التجويدُ والترتيلُ...

شَهَق (المقامُ) وأجهشَتْ (عَتَباتُهُ)

وعلى (الضريحِ) تَلَعْثَم التقبيلُ

ولا يخفى على القارئ لنصوص الصحيّح تفاعلها مع الرموز والمصطلحات تفاعلاً إيجابياً أي أنه لم يكتف بمسايرتها وإعادة إنتاجها أو إنتاج مكوناتها الفنية فحسب، بل يُظهر المستوى الفني لنصوصه وتوظيف نموذجه توظيفاً إبداعياً بواسطة الزيادة في إخراج المعنى أو النقل أو القلب وما شاكل ذلك كعملية الاستعارة والإبدال بين (البترول والخارجي)، وهذا المستوى الفني الذي يعمد إليه الشاعر الطامح نحو المغايرة والمخالفة للمطروح في الحياة الأدبية يُعد شرطاً أساسياً من شروط الإبداع[١٥] يقول[١٦]:

بدماك جَددتِ (الرصافة) (جسر) ها

فكأنما هو عارِضٌ مصقولُ

وأطلَّ رأسكَ من منارةِ مسجد

في (الكرخ).. وهو بأفقها قنديل

ومشى (الفرات) بركبتيك لـ(دجلة)

فإذا خطاه زنابقٌ ونخيلُ

...

أترى (العراق) يخيب فيك، وقد رأى

رؤيا (الخليل) وأنت (اسماعيلُ)!

حسن نصر الله

ومن نماذج (التناص السياسي) في خطاب الصحيّح الشعري استدعاؤه رمزاً من رموز السياسة المعاصرة في عالمنا العربي، ويعدّ أكثر الشخصيات إثارة تقوم بدور الزعامة في مواجهة إسرائيل ومقاومتها ومن الشخصيات القليلة التي تحسب لتهديداته ووعوده ألف حساب[١٧]، هو (السيد حسن نصرالله) الذي بدأ

أميناً عاماً لحزب الله اللبناني عام ١٩٩٢م.

قال الصحيّح فيه[١٨]:

أراك فأسمو في قداسةِ ما أرى
كأن الليالي جَدَدَت فيك (حيدرا)
كأن الليالي في صدى عنفوانها
أرادت لذاك الوِتر أن يتكررا

ومن خلال هذه الشخصية السياسية بدا متعطشاً لرمز حقيقي يُذكّر بجهاد علي بن أبي طالب عليه السلام في مواجهة اليهود في خيبر، مُفيداً في صورته الشعرية السابقة مّما لحسن نصر الله من نسبٍ شريف يتصل بأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي قاتل الطغاة ولاسيما في يوم خيبر مستحضراً لاسم (دبشة) تلك البلدة اللبنانية التي كانت موقعاً للاحتلال الاسرائيلي، وبمثابة القابضة على أنفاس الناس هناك استطاع المقاومون تحريرها في آيار عام ٢٠٠٠م لتكون معادلاً مكانياً لخيبر:

سلاماً (أبا الهادي) [١٩] على قلبك الذي
تناثَر في الوادي طيوراً وأنهرا
سلاماً على السن الضحوك إذا اختفت
وراء التحدي تشعلُ الحرفَ مجمرا
سلاماً على رؤياكَ في كل فكرة
دَحوتَ بها في (دبشةٍ) باب (خيبرا)

لقد أحدثت سياسة حسن نصر الله انقساماً في آراء السياسيين والحكام العرب بين مؤيد ورافض بل معادٍ، والشاعر في نصه هذا يعبّر عن مدى تأثير صفات نصر الله القيادية في قواعد وصفوف عريضة من أوساط الشعوب العربية رغم وقوف حكامها بوجهه أو بالضد من توجهاته وتآمرهم عليه، خصوصاً بعد حرب ٢٠٠٦م ومقاومته للمحتل الاسرائيلي:

مؤامرةُ الأصفار ضدك لم تلد
سوى الصفر.. يا رقماً من الدهرِ أكبرا

فمؤامراتهم تلك لا قيمة لها لأنهم ليسوا سوى مجموعة أصفار لا تساوي في النهاية سوى صفر.

فقد كان الشعور المرّ بالسأم من ممارسات أغلب الحكومات العربية من عملية تخييب الآمال، وتزييف الوقائع والأحداث أمام شعوبها، وقلب الهزيمة الى انتصار، جعل الشاعر منه مكوّناً من مكونات هذا النص حيث تنوعت طرائق التفاعل يقول[٢٠]:

أحدِّقُ في التقويم.. والحزنُ شاخصٌ
على كلِ يومٍ صارَ عيداً مزورا
ألم تَرَها منقوعة في دمائِها
قروناً.. ألم تُمطِر عليها التحسُّرا؟؟

يلاحظ في أبيات الشاعر مقدار تمكنه من أدوات فنِّه ومقدرته على توظيف إحساسه في الموازنة بين ما كان من أوضاع الأمة من تردٍ وانهيار، وبين ما أصبح عليه الأمر بعد انطلاق انتفاضة الجنوب بقيادة السيد حسن نصر الله، وكأنه يزغرد لبشائر النصر التي لاحت في سماء العروبة[٢١] .

محمد الدرة

أفاد الشاعر جاسم الصحيّح من بعض الشخصيات والرموز التي أخذت مساحة واسعة في عالم ينتمي إلى حقل السياسة أكثر من أي حقل آخر، أفاد منها في ترسيخ رؤى ومواقف معينة في محيطه السياسي، ومن هذه الرموز شخصية الشهيد الطفل الفلسطيني (محمد الدرّة) في نصه (الانتفاضة قبلتنا والإمام الحجر) [٢٢] عالج فيه مأساة هذا الطفل الشهيد وانطلق

منها للحديث عن مأساة الشعب الفلسطيني، ونكبة الأمة العربية والإسلامية وضياع القيم الإنسانية في عالم صارت أبرز صفاته الوحشية، قائلاً[٢٣] :

يُحَدِّثُني عنكَ أطفاليَ الحالمون..
يقولونَ:
كان (محمدُ) هذا الصباحَ شعاراً على حائطِ الفصلِ..
فافتضَّ عنه الإطارُ
وَهَرْوَلَ خارجَ صورتهِ
حَرّضَ أوراقَنا أن تثورَ
وأقلامَنا أن تطيرَ..
وكان يحاولُ ثقباً بتاريخنا الهش
فاستدلَّ (خيبرَ) من سجنها المنهجي
كان يفضُّ بها
ما تبطن أيامنا من ظلام وتاريخنا من كذب
يحدثني عنك أطفالي الحالمون..
(محمدُ) ما ماتَ
لكنَّهُ في مناورةٍ تُوهِمُ الموتَ
حينما عانَقَتْه الرصاصةُ
كانَتْ عيونُ الحضارةِ تسبحُ في دمعِها التِكْنُلُوجيِّ..
أفرغَ كاملَ ضحكتهِ داخل الموتِ
لكنَّهُ لم يَمُتْ..

في إشارة إلى مسعى الغرب في جعل الآلة فوق إنسانية الإنسان وليس تحت إرادة الإنسان، فسمات العالم التكنلوجي العنف والتقاتل من أجل السلطة[٢٤] .

ويعود يواصل ممارسة استنكاره لمواقف العرب المثقلين بهموم احتكار السلطة، فبعض أنظمة العروبة التي حكمت بالشعار القومي قد أهانت الشعار وحقوقه، غارقة ومغرقة قضية (فلسطين) وشهدائها في بحور النسيان وسط صمت رهيب يقول[٢٥] :

جاءني.. والعروبةُ ما بينَ أضلاعهِ تنتحبْ
وأهدى إلى العربي المكبل في جثتي وردةً من عتبْ:
لماذا تظل (الشهادة) نائمة في الكتبْ؟
لماذا تطير اليمامةُ أقصر من خوذة العسكري
هنا في فضاء العرب؟
أترى قامةَ الكبرِ أرفع من قامةِ الكبرياءْ!

وهكذا فإن نصّ الشاعر يحتشد بعدة صور شعرية لافتة تنقل الرؤية بصورة تجعل من عمله نصاً متميزاً من حيث تفاعله فنياً مع كثير من المصطلحات والأسماء السياسية والعسكرية.

وان التأكيد على استدعاء قصة مقتل (محمد الدرّة) يهدف إلى التدليل على عجز العرب من فعل شيء يخدم أبناء فلسطين التي ضاعت وسط قرارات السلطات الحاكمة المنشقة على ذاتها خارج إرادة شعبها المشرد في المخيمات والمنبوذ في ديار اللجوء، والذي يعامله بعض أهل النظام العربي بامتهان يزيد قسوة على معاملة العدو المحتل، بوصف (المخيم) بدلالته الواقعية والرمزية الخصبة مرجعية نضالية واجتماعية تؤشر الطريق كبوصلة، لا أن يبقى محافظاً على وظيفته التاريخية كملجأ بعد أن ضاق الوطن بابنه[٢٦] :

رمادّيةٌ أُفقُنا (يا محمَّدُ)
منذ صَحَوْنا على نجمَتَينِ تفحَّمَتَا ملءَ عينيكَ..
فانظرْ لِنخوَتِنا تتقيّأُ امعاءَها
واسْقِنا جرعةً من رحيق الشهامةِ..
صِرْنا على جُرْفِ هاويةٍ لا تُهادنُ..
إمَّا العبورُ الكريمُ

وإمَّا الثبورُ اللئيمُ..
لك الله يا بْنَ المخيَّم
كيفَ كتبتَ امتحانَ السمواتِ للأرضِ!
فاعطف على أُمَّةٍ تُوضعُ الآنَ فوق المحكِّ الصقيلِ..
لقد ضاقَ جوهرُها بالخدوش

ولكن ثمة تعالق آخر وتناص ظاهرٌ بين صور النص الشعرية والصور الحيّة التي عرضتها تقنية التلفاز الذي يعد مصدراً مهماً يلقي بتأثيره على صناعة العمل الإبداعي المعاصر من خلال استفزازها للإبداع او إسهامها في أنها مدار ومحور لكثير من الصور التي ينسجها الشاعر[٢٧].

حينما انحدرت قاذفاتُ (يهوذا) على عربات الأساطير
سدَّت على روحهِ الحقلَ بالطلقاتِ الجبانة
ظنّاً بأنَّ الحصارَ يُحجّم جغرافيا الروح..
(محمد) شدَّ على موتهِ بالنواجذ
ثم اشرأبَّ قتيلاً
يجر جنازَتهُ باتساعِ التضاريس

فلم تعد الصور الشعرية المعاصرة في التجارب الحديثة تقف عند حدود القواعد البلاغية القديمة، بل اتسعت حتى غدت الصورة الواحدة مشهداً يستوعب عدة أطراف وعلاقات وأنواع من العلاقات الجزئية[٢٨] .

آيات الأخرس وعلي الأشمر

أهدى جاسم الصحيّح قصيدته (مناجاة باتساع الوادي) [٢٩] و(مهرة من ساحة اليرموك) [٣٠] الى الاستشهاديين، آيات وعلي مُولِياً لفظة (الاستشهادي) اهتماماً خاصاً، بوصفها إفرازاً لواقع الحياة السياسية العربية لاسيما في (لبنان وفلسطين) كردود فعل طبيعية تجاه الاحتلال الإسرائيلي، وحلول بدت عندهم هي الناجعة في استرداد الحرية المسلوبة.

يقرر الشاعر استحضار شخصية (الإمام علي عليه السلام) و(خَيبر) بوصفهما رمزين لهما دلالاتهما التاريخية والايحائية[٣١] :

من بعيدٍ جاء..
لا أعلمُ من أينَ
ولكن من بعيدٍ..
رُبَّما من طعنةٍ في جسدِ التاريخ
يومَ التحَمَ الجيشانِ في (خيبر)
فانسلَّ الفتى من فَجْوَةِ الطعنةِ
كي يختصرَ التاريخَ في جرحٍ.
اتى يحمل في أضلاعه كوخاً من الإيمانِ
معموراً بحبِّ الله والأرضِ
وطفل ضاقتِ الأسماءُ عن إيمانهِ إلا (عليّاً)..
حَمَلَ الاسم لواءً خافقاً بالقُدسِ
ممتدّاً من الثورةِ حتّى الموتِ
جيلاً جَبَليّاً.

لقد كان التوظيف في النص السابق مُرَكَّزاً بحيث وعى كل المواقف وأدرك خفايا الرمز، مّما أمكنه من توسيع دلالته وتفكيكها تفكيكاً مَنَحَ النصَّ قيماً وأبعاداً جديدة، فمعمار النصّ عند الصحيّح (يقوم على الإشارة أكثر مّما يقوم على العبارة حيث أن الإشارة هي التي تربط النص وترسي قواعده وتشد أعمدة بنائه حتى يغدو هذا البناء قوياً ومترابطاً) [٣٢].

نبتت في فَمِهِ (اللاءات) أنياباً
وربّاها بما أورثَه الأجدادُ من رفضٍ قديم
لم تزل (لاءاتُهُ) تكبر في الرفض فصارت بندقيات

وما زال (علي) حالماً يركضُ خلف الشمس

إنّ الشاعر العربي في منجزه الحداثي صار يتحمل مسؤولية كبيرة – بنظر مريديه – للتعبير عن مآسي عصره، وعن ظروف القهر السياسي وما يتمظهر به من أشكال القهر الاجتماعي التي يرزح تحتها شعبه بخاصة حينما تكون تلك الشعوب المقهورة تحيا وسط ركام عسير من التسلط والاحتلال.

ثانياً: التاريخ والأحداث السياسية:

أمّا المستوى الثاني من مستويات التناص السياسي الذي رصده البحث في المنتوج الشعري لجاسم الصحيّح، فنقصد به مجمل الأماكن والبقاع والمراحل والأحداث التاريخية والمعاصرة، التي دخلت الحياة السياسية وارتبطت بها[٣٣] .

فالصحيّح في انطلاقته انّما هو شاعر إنساني بالدرجة الأولى، فهو في تناصه مع السياسة لا تفرض عليه الرؤى، بل يختط هو لنفسه رؤية خاصة تجاه الأحداث بعيداً عن الأيديولوجيات الضيقة، فالشاعر المبدع في عرفه السياسي (لم يكن قط لسان قبيلةٍ أو طائفة أو ايديولوجيا، أنه كان وما يزال لسان حالهِ قديماً وحديثاً) [٣٤] ، بل هو لسان حجم الآدمية والترجمان الحقيقي لحالة الإنسان سواء في أمته أو غير أمته، فهو يعتقد أنَّ الانتماء للشعر هو انتماء بشري مطلق يتسع الى ما وراء خطوط الطول والعرض[٣٥].

ولذا فعندما يتعرض لقضية (كوسوفا) غير العربية يتناولها بنفس الروحية التي يتعامل فيها مع قضية (الأحساء) أو (العراق) أو (لبنان وفلسطين) مثلاً.

لبنان وفلسطين

فمن قصيدة للشاعر سماها (فحيح في غابة الذاكرة) قدّم لها بقوله: (لبنان يوسف آخر ظلمه أخوته)، يقول فيها[٣٦] :

من منتهى وَجَعي المطليّ بالترفِ
آت وعمري تابوتٌ على كَتفي
هل عند (لبنان) قصرٌ لا شهيد به
أهدي إليه شهيداً بالقصورِ حَفي

يلجأ الشاعر من الوجهة الفنية الى أسلوب تعامل أو طريقة الحديث بالرمز أو فيما يعرف بـ(القناع) وفيها يمتزج الشاعر بالشخصية المستدعاة امتزاجاً تاماً يستبطن عالمها، وهي من أكثر الطرائق الفنية خصوبة وثراءً وإيحاءً. وطريقة ثانية وهي الحديث إلى الشخصية وفيها تصبح العلاقة بين الشاعر والشخصية علاقة مواجهة تقوم على الحوار، وأحياناً تستبدل بحديثه مع نفسه حيث تستولي الأنا على المشهد:

جيلٌ أنا الآن.. جيلٌ لاشعارَ له
إلا التشرذم منقوشٌ على كتفي
حيران أبحثُ عن رأسي وقد هربت
مني.. وشيعتُ في آثارها هَدَفِي
لا قهوةٌ في مقاهي الأمسِ قادرةٌ
تصطادُ همِّي وتستولي على صَلفي

ويعتمد هذا التداخل والحوارية في بناء النص على الترميز الخفي، الذي لا يخفى على القارئ الفطن في لملمة خيوط القضية التي يقصدها الشاعر.

ومن ثم فتلك النصوص لا تقتضي شرحاً وتأويلاً، بل أننا لو فعلنا لأذهبنا بقيمتها ولانتفت الإشارة. فالشاعر يحاول بتقمصه دور الحاكم المترف الذي أسهم في خراب لبنان أن يبدي أسفه وندمه ويقدم إعتذاراته

علّها تخفف من وطأة تأنيب الضمير.

وبعد هذا الإعتراف الخطير من الجاني تأتي أهمية توظيف شخصية (يوسف) كرمز للضحية (لبنان) الذي ظَلَمَه أشقّاؤه العرب وضيَّعوه، ليتضح عندها أنّ الذات الناطقة في القصيدة، وهي الذات المذنبة هم دول الخليج العربي المترفة التي أسهمت في خراب لبنان يقول:

يا (يوسف) الصفح.. ذنبي فيك يسجُنني
حزناً ويطلقُني في دَمعي الذرفِ
كفّارتي ضاقَ عنها النفطُ وانطفأت
آبارُهُ من ملذاتي ومن سَرَفي
غفرانُ (يوسف) أحلى من وسامتهِ..
فاغفر ثرائيَ في أعوامِكَ العُجُفِ

وهكذا فالقصيدة تزخر بتناصات تاريخية ودينية وسياسية كلها تخدم (التناص السياسي) الذي يركز فيه الشاعر على إبراز قضية سياسية حدثت في الماضي القريب من عمر الأمة.

وكالعادة يُحشّد الشاعر كثيراً من الرموز في سياق نصه، بهدف مدّ المعنى وتوضيح الصورة فـ(فاتحة وقدّاس) و(يوحنا وبسملة) أسماء تستكمل المدلول الذي يريد الشاعر الإفضاء به، وهو أن قرية قانا تمثل نموذجاً لتعايش المسيحيين والمسلمين على أرض واحدة، على الرغم من أن الأكثرية ربما كانت للسكان المسيحيين وفي تركيزه هذا ما يكشف عن رؤاه النفسية التي تمثل جزءاً من معاناته، يجلي ذلك عودته ليؤكد مسألة الوحدة والترابط الذي يربط أبناء قانا من كلا الدينين من خلال ذكره لـ(الإنجيل) و(القرآن) إذ ليست الشهادة حكراً على طائفة دون أخرى، فما يجمع الشعوب هو وحدة المصير ووحدة الإنسانية، يقول[٣٧]:

و(قانا) لم تزل خفّاقةً بالأسئلة
ودويٌّ يتعالى من دَمِ (القرآن) و(الانجيل)
حين اتَّحَدى في شِلْوِ طفلٍ وبقايا أَرمَلَه
مِنْ هُنا تنبعِثُ الوحْدَةُ يا (لُبنانُ)..
لا طائفةٌ تحتكرُ العشقَ الإلهيَّ
ولا حزبٌ سوى الموتِ الذي وَحَّدَ في أكْفانِهِ الإنسانَ والأديانَ..

هذا الشعور الذي كان في قانا، هو ما يتمنى الشاعر أن يكون، شعوراً جمعياً يحس به كل العرب.

ولعل أكثر ما رافقت ألفاظ السياسة، القضية الفلسطينية التي كانت محوراً لنصوص عدة من شعر الشاعر، فبعض الأحداث السياسية المرتبطة بتاريخ معين لا يمكن عدّها ظواهر كونية عابرة، لأنها في الحقيقة لم تنته في وجودها الواقعي، ولا في حضورها بوعي المثقف متعدد الثقافات (لأنها مخزونة في الذاكرة على شكل بنيات معطاة متمثلة لأوضاع متكررة، نستسقي منها عند الاحتياج إليها مع الأوضاع الجديدة التي تواجهنا) [٣٨] . فقد أفاد الصحيّح في نصه المعنون (القدس بين العشق والعتق) من المصطلح السياسي الذي كان ذا أثر سلبي في الحياة السياسية العربية وهو (اتفاق مدريد) نوفمبر ١٩٩١ للسلام، الذي عقد في أسبانيا، والذي تم على أساس مبدأ (الأرض مقابل السلام) وكانت محادثات ثنائية جرت بين أطراف النزاع العربية (لبنان - سوريا - الأردن - فلسطين)، وكذلك مصطلح (الردة) وهي النكبة التي أصابت الواقع العربي سنة ١٩٤٨ وضياع

فلسطين، ممّا كان له أبلغ الأثر في إحداث تحولات عميقة في بنية الأدب العربي، من خلال قراءة جديدة للأحداث، شكلت عوامل رئيسة في المجال الثقافي يمكن استجلاؤها بتأثّر وانفتاح عقول شعراء الحداثة العربية على أجواء المثاقفة والقراءة الواعية، يبدؤها بقوله[٣٩]:

كيفَ استباحكِ هذا الكافرُ / السَقِمُ
والدربُ نحوَك بالإيمان ملتَحِمُ

إلى أن يصل إلى مراده الرئيس بعد إثبات عروبة القدس أمام ادعاء بني صهيون يهوديتها، وهو هجاء الأعراب الذين باعوا القضية بثمن بخس:

ما زالت (الردة الكبرى) تُلوّثُها
منذُ استكانَ على أنيابِها، الشَمَمُ
في سوقِ (مدريدَ) باعَتْ ريشَها وَهَوَت
في العارِ.. تلعنُها الصحراءُ والخيمُ
تبّاً لحفنةِ مرتّدين، تُخجلُهم
مِرآتُهم.. كلما غاصُوا بها نِدِموا

وفي رهافة حدس سياسي يحاور الصحيّح الإمام الحسين (عليه السلام) في نصه (الحسين في زمن المسرحيات) يبرز فيه طغيان الهاجس العروبي والإنساني وجدانياً وفكرياً على خطابه، معرّجاً على القضية الفلسطينية، ومستوحياً لمصطلحي (القمة) و(شرم الشيخ) وما يمثل كل منهما من دلالات سياسية معاصرة جارحة، لما لهما من آثار سلبية على الحياة السياسية العربية، بأسلوب ساخر[٤٠]:

وتهادى الممثلون الى (القمةِ)
في (شرمِ شيخِنا) المغوار
سَبَقَتْهُم كروشُهم.. فإذا القاعةُ
موجٌ من الكروشِ الضَواري
وانتظرنا الأجسادَ.. حتى إذا نحن
نَضَجْنا في مرجلِ الانتظار
أقبلوا يسحبون في موكب الذلِّ
رُفاتاً من خِسّةٍ وانكسار
ورأينا وراءَهم حفلةَ الأرداف _
في جوقةٍ من الأبقار
ثم جاءَ التاريخ.. والحفلُ نَشوان
فألفى (خليفةً) و(جواري)

العراق

لقد كان حضور العراق واضحاً وقوياً في شعر الشاعر، وذلك عبر الرموز الكبيرة والشخصيات التي رثاها، والتي كان لها ثقلها في الساحة الدينية والسياسية والأدبية. وارتباط كل منها بالأخرى، عبر العصور والأزمان، وانعكاسها على الشاعر وأثرها عليه.

فتوجُّهه السياسي يبرز ليس في السطور فحسب، بل تُحسّه يشعُّ خارج الجمل، فله من قصيدة (رحلة إبداع) في رثاء الشيخ المفيد (قدس) بمناسبة ألفيته يقول فيها[٤١] :

يا شيخَ (بغدادَ).. لو تَدْري بلوعتِها
لما استقرتْ على جثمانِكَ التُربُ
(دارُ السلامِ).. تَمشّى في مناكِبها الـ
إرهابُ، واندَسَّ في جدرانِها الرُّعُبَ
ساد الوجومُ مغانِيها فلا نَفَسٌ
واليأسُ شلَّ أمانِيها فلا رَغَبُ
عهدتَها حُرَّةً بالأمس ما أَلِفَتْ
عاراً.. فكيفَ تراها اليومَ تُغْتَصَبُ!

فقد أدرك بعواطفه الصادقة أنّ العراق الذي ما جفَّ عليه دمُ الشهداء، كان وما يزال أرضاً خصبة تلهم المبدعين، وتتوحّد فيها آهات الشجعان والمظلومين، لمّا ضمت في تربتها من عظماء.

انظر إلى تغنّيه بالعراق وهو يرثي الشاعر العراقي الكبير الدكتور مصطفى جمال الدين في قصيدة (أمطبب الحرف الجريح) قائلا[٤٢] :

يا بنَ (العراق) وحسبُ اسمكَ رفعةً
تُغري الكواكبَ.. أن يُقالَ: (عراقي)
وطنُ الفداءِ يَصيحُ: يا حُريّتي
جودي ولا تخشَي من الإملاق
وطن تقلّبَ في الجحيم تقلُّبَ الـ
أبرار في تَرَفِ النعيم الباقي
عَصَفَتْ به الدنيا فأطرَقَ عازفاً
لحنَ الصمودِ بِمزهَرِ الإطراق

لقد كان أكثر ما أمضَّ الشاعر هو ما كان يصيب العقول العراقية من أدباء وعلماء ورجال دين ومفكرين كما السياسيين من التشريد والتهجير القسري في حقبة النظام السياسي السابق وما كانوا يعانونه من ألم الفراق ولوعته، وقد كان صديقاً لعددٍ منهم مثل الشيخ الوائلي رحمه الله، الذي وصف غربته من قصيدة طويلة فيه سماها (سأوسع المرثاة أكثر) يقول فيها[٤٣]:

صَرَخَ (العراقُ) وقد رآهُ مُزَمَّلاً
بغمامةٍ سوداءَ من غُرباتِهِ:
مَنْ ذا الغريبُ.. عليه هيئةُ نخلةٍ
عطشى وما شَرِبَتْ سوى عَبراتِهِ؟!

وغيرها من القصائد التي تحسس فيها عذابات المشردين عن أرضهم، وحزنه حتى رأى الحزن هو الوجه الآخر للعراق وإن لم تعرفه البشرية، فقصيدة (قبر للعراق) في تأبين الدكتور مصطفى جمال الدين تروي أشجان الشاعر الصحيّح وهو يستذكر إباءه وحزنه[٤٤]:

وَارْوِ الإباءَ (عراقيّاً) يُشرِّدُنا
في غيهبِ السيفِ حتى يُولَد القمرُ
لا شيء كالسيفِ يُحْيِينا إذا حَمَلَتْ
أمْثالَنا الأرضُ أمواتاً وما قُبروا
...
كُنتَ (العراق) الذي جاعَ العراقُ له
جوعاً تغذّت على أطيافهِ الذِّكرُ
غريبةٌ كلُّ روحٍ فيه ما حَمَلَت
حُزناً تَربّى على اصدائِهِ، الحَجرُ
ما الحزنُ ألا عراقيٌّ وإن سَقَطَتْ
عنه الهُويَّةُ فيما يدّعي البَشَرُ

فالمتابع لقصائد الصحيّح يجدها تفوحُ برائحة العراق، وبتفاعله مع تطورات كل حادث يجري على أرضه، مستغلاً مناسبة رحيل عالم أو مفكر من أبنائه ليجعلها منبراً يستنكر منه ما يتعرض له شعبه من مظالم، فهو يحمل قضية العراق وأحزان ومظلومية شعبه وتسلّط المجرمين على رقابه، في وجدانه. يشعر بهذا الإحساس كل من يقرأ قصيدته (صرخة السكون) بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل المرجع السيد أبي القاسم الخوئي (رحمه الله) سنة ١٩٩٣ منها قوله مثلاً[٤٥]:

عامٌ.. وما بَرِحَ العراقُ فريسةً
بيضاءَ ينهشُ لحمَها الإجرامُ

وعلى بقايا عزَّةٍ من أمسهِ
راحت به تتعملقُ الأقزام
وَطَواه وَحْشُ جرائمٍ مُتلقِّفاً
بنيوبِهِ ما تَقْذِفُ الأرحامُ
يصحو على صَرَخاتِ طِفلٍ ساهرٍ
وعلى هديرِ القاذفاتِ يَنامُ
غرِقَ العراقُ بِموْجَةٍ من دَمْعِهِ..
اللهُ!! وهوَ السابِحُ العَوَّامُ!!
واستنزفَتْهُ العاصِفاتُ قوادِماً
شُمّاً فَخَرَّ الأجدلُ الحَوَّام
وجَفَتْ فضاهُ النَّيِّراتُ وصُودِرَتْ
من حَيِّهِ للأكرمينَ، خيامُ

ولو أنا تابعنا كل قصائد الشاعر في هذا المجال لطال بنا الحديث، إلا أن شعوره العالي بالانتماء الى العراق ربما تجسّده أبياتُهُ في قصيدة (قربان للوطن المؤجل) في رثاء السيد محمد باقر الحكيم يقول فيها[٤٦]:

يا سيّدي.. ومن (العراق) الى دمي
عِرْقٌ نَمَتْهُ مناحةٌ وعويلُ
أحمي خريطتَهَ بقلبي كلّما
هَدَرَتْ عليه عواصفٌ وسيولُ
وعلى التضاريس الحزينةِ أنحني
حَدِباً، وموكبُ أدمعي موصولُ
جُرْح يقودُ لآخرٍ، ومآتمٌ
تفضي لأخرى.. والعذابُ يطولُ

إلا إنه وفي قصيدة (صرخة السكون) السابقة، وهو الإنسان الشاعر الذي لا يمتلك سوى الكلمة يواسي بها جرح العراق، واضعاً يده على مواطن الألم فيه مستشرفاً ومتفائلاً له بمستقبل نيّر تنتهي به سطوة الظالم، كان فيها نوعاً من النبوءة إذ أن سنن التاريخ قضت بانهيار قلاع الظالم مهما حاولت الأنظمة الجائرة ترصين أسسها ومستذكراً تاريخ العراق السياسي متمثلاً بثورة العشرين، ما يشير إلى مدى متابعته للحدث في العراق[٤٧]:

كَفْكِفْ أنينَكَ يا (عِراقُ) سَيَنْتهي
بِكَ في أكُفِّ المؤمنينَ، خِتامُ
سيزولُ عنك قتامُ كُلِّ مُصيبةٍ
ويُنيرُ أفْقَكَ للكفاحِ قتامُ
وفوارسُ (العشرين) سوفَ يُعيدُهُمْ
جيلٌ أقامَ كيانَهُ، الإسلامُ..
كَفكِفْ أنينَكَ يا (عراقُ) سيرتمي
للظالمينَ براحتيكَ، زِمامُ
وهناك تُسْتَوفَى الديونُ وينطفي
لكَ في دماءِ الظالمينَ أوَامُ
لابُدَّ من يومٍ بوضحِ نهارِهِ
يغشى أواوينَ الطُّغاةِ ظلامُ

وقد يبرز من خلال تفاعل الشاعر مع الأحداث السياسية على الساحة العراقية مدى انعكاسات تلك الأحداث ومدى إلمامه بها واستيعابه إياها.

الإحساء

قد يدعونا السؤال عن علاقة الشعر بالثورة أن نتساءَل عن الدور السياسي الذي لعبه الشعر العربي المعاصر في النقد السياسي، سواء أكان ذلك بصورة مباشرة أم غير مباشرة ممّا كان سبباً في رفع وعي الجماهير، وفي بلورة الحس النقدي عندها، وإعدادها نفسياً للسخط الشديد على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الفاسدة ممّا أدى إلى إذكاء حالة الاختمار

الثوري، الذي يؤدي أحياناً الى انقلابات عسكرية لتغيير الأوضاع، أو إلى ثورات متكاملة ناجحة.

ويشكل التناص السياسي عند الصحيّح صورة تطبيقية واقعية في إلتحامات السياسة في خطوط رؤاها النقدية مع الشعر، حيث تؤول لغة الشاعر في نقدها السياسي إلى نقطة رمادية في الواقع مفادها الحرمان من الشعور بالسلام والحرية في ظل واقع مدلهم أُحادي صارم، ففي قصيدة (الخطوة الخالدة) يقول[٤٨]:

كانَ فيمَا كانْ
شاعرٌ صادَرهُ السلطانُ من كلِّ أمانيهِ..
ومن كلِّ معانيه..
وحتى من حِذاه.
سَلّهُ من صوتهِ ثم نَفاهُ
خرج الشاعرُ محفوفاً بأحلام المطر
وهُنا غاصَت - بما يحملُ من رفضٍ عنيدٍ – قدماه
خطوةُ شاعر..
هل تكنُسها الريحُ
وقد شُدت بأوتاد القَدَر؟!

فالشاعر يطير نورساً حراً ناطقاً بلحن الحرية في ظل ثقافة الصمت التي تئن في مجتمعه استبداداً وعذابات، لا يجليها هذا المقطع من قصيدة (الخطوة الخالدة) فحسب بل غيره عشرات النصوص، منها قصيدته (إحساء) التي ينطلق فيها الشاعر من إحساس بالغبن وضياعِ العدل، مستحضراً تاريخها السياسي الطويل في القهر[٤٩]:

يا منبت العُظماءِ بين زوابع الـ
أهوالِ.. بل يا منبتَ التعساء
حارت خُطاي.. أألتقيكِ مُعمّماً
بقصيدِ مدحٍ أم قصيدِ رثاء
صَقَلَت بنيران الإباء صمودَها
سيفاً تبرّأ من يدِ الجبناء
أسفي عليكِ.. وأنتِ واهبةُ السَنا
تتجرّعين مرارةَ الظلماءِ!!
فتسلقي القمم المنيفةَ حُرّةً..
ان الجحورَ مساكنُ الضعفاءِ!

ان هذا النوع من الحب العميق الذي يصوره الشاعر في عواطفه تجاه مدينته على الدوام، هو وحده الطريق إلى دواء الجرح، بل لابد منه ليكون غذاء لقضية شعب كشعب الإحساء، هذا الحب بهذه القوة هو تعويض، وردّ على التهميش المتعمد الذي يُجسدُه الحاكم المستبد[٥٠].

وهكذا فالشاعر ينشد الحرية في وطن لا تحدّه الرسوم الجغرافية، لأن الوطن عنده - ما دام مثقّفاً واعياً لحقوقه عارفاً بواجباته - يعني (حرية - عطاء - حقوق) وهو لهذا كله أشمل من المعنى الجغرافي[٥١]:

وطنُ (النصوص المدرسية) لم يَعُدْ
وطني، وإن أُلقِمتُهُ أشعارا
ما أنت يا وطني مُجرَّدُ طينةٍ
فأصوغُها لطفولتي تذكارا

وقد يكون السبب وراء هذا الموقف يعود الى حادث سياسي، إذ إنّ توظيف التناص عبر الرمز يدفع القارئ على الدوام الى الحفر والتنقيب في مضمون النص، فقد استمد الصحيّح كغيره من الشعراء من التراث بوصفه معيناً لا ينضب من الأصوات التي تحمل كل نبرات النقد والإدانة لقوى التعسف والاستبداد.

تلك المعطيات على الأرض، هي الواقع الذي يحاول الشاعر التفاعل معه واستحضاره بوصفه تاريخاً سياسياً معاصراً يحياه، ويعانيه، ويعبّر عنه بكل الأشكال، تارة برموز الطبيعة وتارة بالرجوع إلى رموز التاريخ كما في (ذكراك فوهة الثورات) في رحاب الإمام الحسين عليه السلام[٥٢] :

ذكراكَ انشودةٌ سالت حناجرها
جَمْراً على كَبِدِ (الاحساءِ) يَستعرُ
(احساؤنا) حيثُ مَرَّ الله ذات ضحىً
فانشقَّ في الأرض من خطواته نَهَرُ
وامتدّ في الأفق نَخْلٌ من جلالتهِ
ما كاد يهتزُّ حتى هَلَّلَ المطر
إيمانُها بِكَ لم تُجرح عقيدتُهُ..
مُقَدّسٌ ذلك الإيمانُ يا (هَجَرُ)!
لكنَّ بي غُصَّةً ممّا تكابدُهُ
بنت الينابيع مِن هَمٍّ.. وتصطبرُ:
تُسقى نخيلاتُها من دمعةٍ سُكبتْ
على الحسين ومن حُصّادِها الشمرُ!!

فالبيت الأخير يمكن التعبير عنه بالصدمة التي تستجلب انتباه المتلقي ودهشته، وتدفعه إلى تتبع الدلالات المنبثقة من ألفاظه والتي تسهم في كشف خبايا النص بإنتاجية جديدة تكسب المقطع دلالة إضافية وتبعث في وجدان القارئ انفعالاً خاصاً وحالة شعورية مميزة.

كوسوفا

تنبع أهمية التناص السياسي في شعر الصحيّح من كونه يتجاوز الحدث العربي، فقد تدخل الحياة السياسية أحداثاً لا تنتمي إلى حدود العرب الجغرافية إلاّ أنها تمثل رموزاً سياسية بوصفها صفحة جهاد إسلامية اكتسبت مشروعيتها من تاريخها الطويل ودخولها في المعترك النضالي. وبحكم كونها تمثل حلماً سياسياً مضاعاً، كأحلامٍ سياسية عربية كثيرة ضاعت من قبل.

لقد وظّف الصحيّح لفظ (كوسوفو) [٥٣] بوصفه مكاناً له رمزية جهادية دامت وتطاولت لعشرات السنين، ومن يومها وكوسوفو تتجرع صنوف أشكال العذاب والإبادة الجماعية[٥٤] ، يقول في مطلع قصيدته (كوسوفا.. غربان على نعش هابيل) [٥٥] :

(كوسوفا) تُوسِّدُ جُثَّتَها فوق زندِ الحضارةِ
ثُمَّ تهاجر في صمتِها تحتَ إبطِ العواصفِ
هاربةً في جحيم الحضورِ الى جنَّةِ الذاكرَهْ
تحاولُ أن تغتدي نجمةً من حنينٍ
تشعُّ على جبهاتِ القصائدِ (أندلساً).. عاشِره

فهل ستكون كوسوفا محفورة في ذاكرة الزمن كما هي جروح الأندلس، يقول[٥٦] :

(كوسوفا) التي انْفَرَطَتْ من قيودِ (الخرائطِ)
كالظبيةِ النافِرهْ
هِيَ الآنَ في (مجلس الامنِ)
مصلوبةٌ في قرارِ حزينٍ[٥٧] على متنِ ساريةٍ فاخرهْ
والثعالب تذرفُ قُدّاسَ أشجانِها الماكرهْ
وتبقى القَطاةُ الأليفةُ - أمَّتُنا العربيَّةُ –

إن أكثر ما يشجي جاسم الصحيّح هو موقف العرب والمسلمين المتخاذل دوماً في مواجهة قضايا المسلمين العادلة والتحديات ألتي تعصف بهم، فشعبُ كوسوفا يعاني عذاب التمييز العنصري دافعاً مئات الضحايا في ذلك، فهو ينتظر من الحكومات العربية والإسلامية تأييداً سياسياً لمطالبهم الشرعية واعترافا ببلدهم جمهورية مستقلة إلا أنهم لم يجدوا اعترافاً سوى من رفيقة النضال (ألبانيا) فلم تحاول تلك الدول حتى قطع العلاقات الدبلوماسية أو الاقتصادية

مع الدولة المعتدية كنوع من الاحتجاج والردع كي ترجع عن جرائمها.

وأمام هذا التاريخ السياسي العالمي المشوَّه، وهذه الحضارة الكاذبة، يقف جاسم الصحيّح متحسراً مذهولاً[٥٨]:

آهِ يا أيَّها الزَمَنُ العسكرِيُّ:
هُنا يستقيلُ السَلامُ
ولا يتبقّى على الأرض غير خيوطٍ من الدم تربطها السَماء..
فَوَا خَجْلَتاهُ!!
لماذا الطريق الى الله يمتدُّ عبرَ الدِّماءِ؟!

إنَّ القلق يشكّل السمة البارزة في هذا النوع من التجارب الإنسانية التي يتفاعل فيها الشاعر مع أحداث سياسية معاصرة، فإذا كان الشاعر في العصور القديمة يفزعه جرح الطائر من حوله مثلاً ويثير لواعجه، فإن أعداد الضحايا البشرية التي ترتفع في العالم كل يوم من شأنها أن تراكم القلق عليه إلى الدرجة التي يظل فيها منشغلاً بسؤال الخطر المحدق الذي يصيبه في أعماقه في ظل هذه النقلة العظمى في عالم التكنلوجيا والفضائيات حيث يزيد نشاط القلق في روح المبدع، وحيث تصطدم فطرة الروح الإنسانية المسالمة بشذوذ الروح البشرية التي لا تكترث بما تتركه خلفها من دمار وأشلاء إنسانية.

النتائج

بما أن التناص لم يكن مجرد مفهوم ونظرية، بل هو إجراء تطبيقي وممارسة نصية، فإن هذا البحث جاء تطبيقياً إجرائياً، على ان أهم ما ينبغي التركيز عليه في مقاربة من هذا النوع هو الحرص على اختيار متن جديد حافل بأشكال تناصية متنوعة لا سيما السياسية لاختبار مفهوم النظرية المنهاجية.

١. لقد استأنس نص الشاعر (جاسم الصحيح) في صياغة معمارية بأنماط متعددة من المقتنيات السياسية النصية والتضمينات المرجعية، مستفيداً من قوانين التناص خصوصاً ما يتعلق بتمثل وتشرب الشاعر للنصوص والأحداث والشخصيات تمثلاً جعلها جزءاً من ذاته الإبداعية وأكسبه مرونة التصرف في دوالها ومدلولاتها بحسب ما تقتضيه سياقات نصّه الشعري فكان امتزاج النص السياسي بعمله الأدبي يحيل على الأطر الثقافية التي شكلت شخصيته والمناهل التي استقى منها مادته والتي تمازجت مع نصه الأصلي فنهضت بوظيفة خلق التنوع والمغايرة وأدى إلى توليد دلالات جديدة عمقت تجربته واكسبتها ثراءً ما كان ليحصل لولا هذا الاستئناس.

٢. شكلت نصوص الصحيح مبحثاً هاماً في التفاعل مع أحداث وشخصيات سياسية ومواقف وأماكن لها الوقع الأكبر على الحياة المعاصرة عامة بكل مفاصلها، فهذه النصوص مبنية على صلاتها بتلك النصوص، مهما كانت هذه الصلات ظاهرة أو خفية باعتبار أن النص حقل منهاجي وأساس إنتاج أي نص معرفة صاحبه بالعالم وما يدور فيه، هذه المعرفة هي أيضاً الركيزة في تأويل النص من قبل المتلقي وتداخلها نصياً لتصوير الواقع المأزوم الذي يعيشه الانسان العربي المسلم في ظل أنظمة ومجتمعات يحكمها الظلم والفساد، وتسودها الفوضى واللاعقلانية والإرهاب.

٣. كشفت نصوص الشاعر عن طبيعة ذات نزعة إنسانية مثالية تائقة إلى كل ما من شأنه احترام إنسانية الإنسان ووقف معاناته والإيمان بالوحدة والمساواة سبيلاً للخلاص.

الهوامش

١- أدب السياسة في العصر الأموي: ٨.

٢- في الشعر السياسي: ٦.

٣- ينظر: من موضوعات الحداثة في الأدب والصحافة: ٦٩.

٤- ينظر: الأدب والسياسة وجهان لعملة واحدة: (المقدمة).

٥- (باعتبار أن التناص يرتبط بثقافة المتلقي وسعة معرفته وقدرته على الترجيح)، تحليل الخطاب الشعري: ١٣١.

٦- أعشاش الملائكة: ١٧٨ - ١٧٩.

٧- ينظر: السياسة الملتزمة في نهج الامام الحسن (ع): ١٥٠.

٨- ينظر: الحسن بن علي عليه السلام رجل الحرب والسلام: ١٢ وما بعدها، يذكر السيد محمد علي الحلو أنه (لم يكن بين الحسن بن علي عليه السلام وبين معاوية صلحاً بقدر ما هي هدنة الحرب وموادعة السلام لحين ما تنقشع ظروف الخيانة التي أرخت بسدولها على رغبة الإمام في مواصلة الحرب، فيستجيب مكرها، ويقبل ممتحناً بما يعانيه من جيشه في حب العافية والخلود).

٩- ما وراء حنجرة المغني: ٤٧.

١٠- أعشاش الملائكة: ١٨٥ - ١٩٤.

١١- التناص في الخطاب النقدي والبلاغي: ٢٣ - ٢٤.

١٢- أعشاش الملائكة: ٣٢٥.

١٣- م.ن: ٣٢٦.

١٤- م.ن: ٣٢٧.

١٥- ينظر: التناص في الخطاب النقدي والبلاغي: ٤٣.

١٦- أعشاش الملائكة: ٣٣٠.

١٧- ينظر: موقع (إسلام أون لاين): ثقافة وفن/ حسن نصر الله المنتصر بلا غرور.

١٨- أعشاش الملائكة: ٥٠٧.

١٩- إشارة إلى ابنه البكر الشهيد هادي الذي فقده في مواجهات عسكرية دارت بين مقاتلي الحزب وجيش العدو في منطقة الجبل الرفيع جنوب لبنان، ينظر: حسن نصر الله.. السيرة الذاتية. الجزيرة نت.

٢٠- أعشاش الملائكة: ٥١١ - ٥١٨.

٢١- ينظر: روائع الشعر العربي في المقاومة وسيدها: ٥٩.

٢٢- ظلي خليفتي عليكم: ٤٩.

٢٣- م.ن: ٥٠-٥٣.

٢٤- ينظر: النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية: ٣٠.

٢٥- ظلي خليفتي عليكم: ٥٦.

٢٦- م.ن: ٥٨.

٢٧- ينظر: الصورة التلفازية والعمل الشعري، عبد الرحمن المحسني، مقال أدبي نُشر في المدينة في ٢٠١٠/١/١٧ (سعورس).

٢٨- ينظر: الصورة بين البلاغة والنقد: ٣٧، والاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر: ٣١٥.
٢٩- اعشاش الملائكة: ٣٧٩.
٣٠- م.ن: ٣٩١.
٣١- أعشاش الملائكة: ٣٨١ - ٣٨٣.
٣٢- معمار النص بين الاشارة والعبارة، (مقالة لجاسم الصحيّح في صحيفة (اليوم) السعودية بتاريخ ٢٠١٢/١٠/٢٢. www.alyaum.com/article/٣٠٦١٧١١.
٣٣- ينظر: تأصيل النص: ١٩٩.
٣٤- أعشاش الملائكة (مقدمة الشاعر): ٧.
٣٥- من حديث للشاعر مع قناة الكوثر الفضائية بتاريخ ١٤٣١/١١/٢هـ، ٢٠١٠/١٠/١٠م.
٣٦- رقصة عرفانية: ٧٣.
٣٧- حمائم تكنس العتمة: ١٥.
٣٨- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص): ١٢٣.
٣٩- أعشاش الملائكة: ٤٧٧.
٤٠- م.ن: ٢٣٨.
٤١- م.ن: ٢٧٧.
٤٢- م.ن: ٣٥٥.
٤٣- م.ن: ٣٢٠.
٤٤- م.ن: ٣٣٦.
٤٥- م.ن: ٢٩٣.
٤٦- م.ن: ٣٢٨.
٤٧- م.ن: ٢٩٤.
٤٨- ظلي خليفتي عليكم: ١٧٩ - ١٨٠.
٤٩- م.ن: ١٢٥.
٥٠- ينظر: أدباء معاصرون: ١٩٩.
٥١- ما وراء حنجرة المغني: ١٧٣ - ١٧٤.
٥٢- أعشاش الملائكة: ٢١٥.
٥٣- قوصوة أو قوصوه هو الاسم العربي التاريخي لأقليم كوسوفا الحالي، ففي سنة ٢٩٥هـ - ٩٠٨م أسلم ملك البلغار وأهلها في أيام المقتدر بالله وارسلوا الى بغداد رسولاً يعلمه بذلك ويسأله إيفاد من يعلمهم الصلاة والشرائع، أي ان الاسلام عرف طريقه الى البلقان قبل أن تظهر سيوف الأتراك وخيولهم على مشارف كوسوفا حيث كانت جسور التجارة هي القنوات التي نقلت الإسلام الى هذه المناطق. ينظر: معجم البلدان: ١/ ٤٨٥ - ٤٨٦.
٥٤- ينظر: كوسوفو: التاريخ والجغرافية والاستقلال/ مقال بقلم حيدر البطاط. جزيرة نت، موقع الكتروني

ويكيبيديا - http://news-bbc.co.uk/hi/arabic/world-newsid-72y9000/7249070stm الموسوعة العربية.

٥٥- ظلي خليفتي عليكم: ٢٤٣.

٥٦- م.ن: ٢٤٦ - ٢٤٧.

٥٧- رقم القرار ١٢٤٤ الصادر من مجلس الأمن يقضي بوحدة أراضي وسيادة جمهورية يوغسلافيا الفيدرالية وصربيا بصفتها وريثة لحقوقها، وأن (كوسوفا) لا يحق لها بمقتضى القانون الدولي تقرير مصيرها من طرف واحد إذ إنها كانت دوماً إقليماً ضمن صربيا وليس جمهورية مستقلة. ينظر: كوسوفو: التاريخ والجغرافية والاستقلال - (مقال سابق).

٥٨- ظلي خليفتي عليكم: ٢٤٧ - ٢٤٨.

المصادر والمراجع

١- الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، عبد الحميد جيدة، مؤسسة نوفل، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٠م.
٢- أدب السياسة في العصر الاموي، أحمد الحوفي، دار القلم، بيروت، د.ت.
٣- الأدب والسياسة وجهان لعملة واحدة، دعاء محمد الجبوري، دار الاستقامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.
٤- أدباء معاصرون، رجاء النقّاش، الجمهورية العراقية وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، سلسلة الكتب الحديثة، رقم (٥١) ١٩٧٢م.
٥- أعشاش الملائكة، شعر جاسم الصحيّح، تقديم سماحة العلامة الشيخ الدكتور احمد الوائلي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
٦- تأصيل النص، قراءة في أيديولوجيا التناص، د. مشتاق عباس معن، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط١، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.
٧- تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
٨- التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، دراسة نظرية وتطبيقية، د. عبد القادر بقشي، تقديم محمد العمري، افريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٧م.
٩- الحسن بن علي رجل الحرب والسلام، السيد محمد علي الحلو، دار المتقين، بيروت، لبنان، ط١، د. ت.
١٠- حمائم تكنس العتمة، شعر جاسم الصحيح، الإحساء، السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ.
١١- رقصة عرفانية، شعر جاسم الصحيح، دار الكنوز الأدبية، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٢- روائع الشعر العربي في المقاومة وسيّدها، علي أحمد، بيروت، ط١، دار ايوان ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
١٣- السياسة الملتزمة في نهج الإمام الحسن عليه السلام تأليف السيد محمد الموسوي، دار المحجة البيضاء، دار الرسول الاكرم، ط١، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
١٤- الصورة بين البلاغة والنقد، أحمد بسام ساعي، المنارة، ط١، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
١٥- ظلّي خليفتي عليكم، شعر جاسم الصحيّح، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.
١٦- في الشعر السياسي، عباس الجراري، دار الثقافة، دار البيضاء، ١٩٧٤م.
١٧- ما وراء حنجرة المغنّي، شعر جاسم الصحيّح، الدار الوطنية الجديدة، ط١، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
١٨- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، ط١، بيروت، ١٤٢٨هـ.
١٩- من موضوعات الحداثة في الأدب والصحافة، د. عناد إسماعيل الكبيسي ط١، بغداد، ٢٠١٠م.
٢٠- النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، د. عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، لبنان، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥م.

المواقع الالكترونية:

١- الصورة التلفازية والعمل الشعري، عبد الرحمن المحسني، مقال أدبي نُشر في المدينة في ٢٠١٠/١/١٧م (سعورس).
٢- موقع (إسلام أون لاين) ثقافة وفن، حسن نصرالله، المنتصر بلا غرور.
٣- الجزيرة نت.
٤- معمار النص بين الإشارة والعبارة، مقالة لجاسم الصحيح في صحيفة اليوم السعودية، بتاريخ ٢٠١٢/١٠/٢٢م. www.alyaum.com/٣٠٦١٧١١/article
٥- من حديث الشاعر مع قناة الكوثر الفضائية.
٦- ويكيبديا، الموسوعة العربية (كوسوفا).